

سأرفع فضيحة السفوح

زعيم نصار

كاتب من العراق

■ في الجنوب مني يندلع البياض، مصباحا ناضجا أقطفه، أقطف ضحكة العشب المجعدة واعتلي صحوتي. لدي لعبة الغراب تهشم رأس المرأة الصغيرة. يكتظ في بيتها الغبار. اندلع في مرآة أصقلها تحت حبر يتمرد بين اذرع المهالك.

اقترب من لحظة الاصغاء وأتساقط ألف ليلة في المنافي. يتبعثر رأس الأرملة كالخرز الأبيض في الجنوب مني؛ في تلك الليلة الزرقاء روّضت انتظارها الذي يفتك به المنفى. هناك الغبار لا يكل قربي، يتهدّل انكساري كالنعاس. اتشظى تحت مصباح الغموض. بين نباح النحلة في دمك وهلوسة العاصفة تتعفن النبوة في أدراجي او يلتقطها الصديق الذي يربض ترب ضفتي في النبع الذي ينبض أحرف اللحظة البوذية.

تتضرع الارملة للصحراء وتضيع في نافذة الأسلاف تمضي لعبة الغراب تمسك لحظة المهزلة وتحكي عن الطائر الابيض يتسمر في الفخ.

أسوّر وجهي بك، سأتقف انتظر أرصفة مبتورة تأتينا. هنا طاووس المهزلة يفك الفخ في خرائب تسترخي. قال سيد الوادي: البياض يقنص شتاءنا في رقاص الساعة المكسور. وقال الصياد في ندم لمرآته: هل اخدش حلم الطريدة لاجريه؟

الغراب يصحو في كأس النار ويمزج الجمرة بنبع الشظية البريئة. سيعلو الغبار في كل نهر قربه لعبة تهذي الحطام وتنزف عري الأملاح الصدئة. سأقص حكاية الغراب على شرفة ثملة وانبجس في ستائر الأرملة.

قيل: إنّ الغراب سيفارقني قبلها ويتدحرج في ظلال المهرج، يمسك سرج الجنون.

معي المشعل أحصي تخوم السيد وأقصد نتف نشوته، اقصد الأفواه مقبرة للنبات؛ أقصد البياض اسما للغراب. في كل جرح قناع واحد. سأفسّر شعلة الجدار مجرة ترتد وتكبر في تعويذة الجنوب. اقصد البياض بطة نذبحها ونتهادى حول مجدها السام. تحملني اللحظة في ألم فظيع قربها. في كل بياض ثلج موت يتوهج. في رأس الأرملة ينشد البياض غرابه؛ في العربات يصادفني نبوة تشتعل حدادا في فخ اللغة. لكن طائر التردد لم يلتق بنافذة العواصف.

سأعود من كل مقعد أهرشه، وأعرف ان موت النبع كرائحة الصحراء في درع العبيد تتجلى.

سيفسر الغراب في مرآتك وجه الغبار. يا بيت الارملة انهدم في نخاعي، في عينين من جمر. الوقت عنكبوت يقنص ذبابة المنفى. انه نجم مذنب يبزغ في بيتك الذي نجهله قربنا.

هنا الأصابع تمرد القلب كالبيضة عندما تسقط انحرافة كالمصباح في غرفة العراف. سأتجلى في دمية الغياب؛ افتش عن جسد الهاوية.

سأهوي في الغراب، سأهوي طويلا في لعبته. انه جرح قديم يلهو معي.

سأرفع فضيحة السفوح عاليا تتناسل. □

حول بعض التخرصات الاستشراقية المضادة

حكمت الحاج

كاتب من العراق

■ ليس ما اعتدنا أن نسميه بـ «الاستشراق»، سوى الوجه الآخر لنظرتنا لأنفسنا نحن، تلك النظرة المبسطة الحاملة للكثير من تجريح الذات أو تهويلها، نقدمها على أنها هي حقا «نظرة الآخر» الينا، فنكسرها، ونبني جدارا حولها، وانها نيأس من أنفسنا لأننا نسيء معرفة الآخر، فنسيء الى تاريخنا، لجهلنا إياه، أو لاعتقادنا بأن ذلك «الآخر» لا ينال.

وفي كل الوقت، ما الذي قد حصل؟ لقد جاء من هو غريب عنا ليقرأ لنا بصوتٍ مسموع، وأمام أعيننا، ذواتنا وظلالها. وبعد ان عرفنا «بعض» الأشياء وتعلمنا ان نقرب بعض الاشياء الاخرى، رحنا نلوح بعصانا يمنة ويسرة لنطرد جمعا من الاشباح التي لا يراها سوانا.

ان اكثر ما يسم رؤيتنا للاستشراق بهذه الطريقة - التي هي مجرد تعرفٍ على «من نحن» وليس «من نحن عند الآخر» - هو اننا ما سجنا عقلنا كما سجناه، داخل حدود ثقافة لا قابلية للحوار لها، لهذا الشكل القاسي، واخذنا نزهو بوضعية مزعومة نعتبرها اطلاقا لأمكانات «عقلنا» نحو أفق اكثر اتساعا وجمالا، بينما هي في الحقيقة مسخ ذاتي. وان كان لا يسعنا مع ذلك الا ان نتعرف بين الحين والآخر الى دوافع تطورنا الحضاري الذي هو الآن محفوظ في ذمة الماضي، ومنه نحن انحدرنا على غير علم منه، فانه يحاول جاهدا ان يخنق وعينا هذا ويحوله الى قفزات مماتة من العبث واللاجدوى.

ان بروز ظاهرة «التصدي للاستشراق» وسط عالم متغير في بناه الفلسفية والفكرية، ووسط عالم بات لا يؤمن الا بالحوار الثقافي الخلاق والمفتوح ليستدعي على الفور السؤال التالي: أية بنية، هذه التي يمكن بالاستناد اليها ان نحاكم الآخر؟؟

واذا ما كان الاستشراق حركة علمية نشأت جذورها داخل الثقافة الاوروبية وكان الهدف منها التعرف الى تاريخ الشرق وجغرافيته وشعوبه وأديانه وآدابه وتقاليده وأساطيره ولغاته، وحتى أحلامه، وكل ما يتصل به ويعود اليه ويكشف عن نواياه، فانني كمشرقي، وبالتالي، كمن سينصب عليه فعل الاستشراق، أبادر الى التحصن في قلاعي خوفا من الانكشاف والابانة، ولن آلوَ جهداً في تمييز الحركة كلها على انها جهود سياسية للاحتواء لا غير، مضيعاً بذلك على نفسي مرة اخرى فرصة عظيمة لمواجهة الآخر، وبالتالي، لتشريح نفسي أمامها.

وهو ما يحصل الآن بكل بساطة.

كتابات حول الاستشراق بمناسبة أو بدونها، تنزع الموضوع من أصله لتحوله الى منظومة صراعية لقوى سياسية معلنة في جميع الأحوال، ومضمرة في احوال أخرى، لكن من السهل تأشيرها.

هكذا يغدو جهد «التصدّي للاستشراق» ليس فعلا في المعرفة، بل هو دائماً جملة واحدة ومعها تنويعاتنا عليها نحن أولائي، وما زلنا هنا. هكذا، بلا معرفة.

ولا يكون الاستشراق سوى حركة تخدم مصالح الآخرين وتسعى الى اضعاف التشكيل الاجتماعي، واللغة، والدين ولا يكون المستشرق سوى ذلك الذي يلبس ثوب العالم، وينطق بلغة البلاد ويصطنع البحث العلمي.

ولكن، نحن من نكون؟

هل نحن أولئك الذين يعرفنا «الآخر» بنزاهة؟

وهل نستطيع ان نتجاهل نواياه المبطنة وهو يستقريء ماضينا ويحلم بصنع آليات حاضرنا؟ لكن، تماما ذلك «الباحث» ومقاصده. لكن، أليس علينا أن نقوم بجهد ثقافي حضاري لفهم صراعاته وطرق تفكيره، من أجل فهم أشمل لصورتنا كما نريد أن نراها نحن بوضوح، وكما نريد أيضا أن يراها هو عبر رؤيتنا، بعيداً عن مماحكات ظرفية وسياسية لا تخدم الا المزيد من الضباب علينا. □